

# الهاربون إلى مدينة الوحدة اختاروا ألا ينتموا إلى العالم

## سيرة ذاتية تمدح الوحدة في مدن حولت الإنترنت سكانها إلى مجانيين



الوحدة قد تكون فعلا إبداعيا (لوحة للفنانة نور بهجت)

أصيبوا بالعزلة، فأثرت بالسلب على نمط حياتهم في ما بعد على نحو ما تستعرض من سيرة حياة ديفيد وونتاروفيتش والبيئة غير المثالية التي عاش فيها، حيث انتمى إلى عائلة مفكدة؛ فامه وأبوه منفصلان، كان والده قاسياً مفرطاً في عقابه، وبالمثل فقد طردته أمه وطردت إخوته أيضاً. عاش بعد انفصال والديه في ماوى تعرض فيه لصنوف من العذاب المقيت، وعندما استردته أمه في الرابعة، اختطفه أبوه، ووضع في مزرعة دواجن وعانى مع زوجة الأب في نيوجرسي، كما أن المسكان كان قميئا حيث الشذوذ والدعارة والعنف الجسدي، تمت مرادته عن نفسه بالنقود وغيرها، إلى أن رخص، وصار مثلياً. حوله الشارع إلى هيكل عظمي متحرر، انتهت قصته في المستشفى. وحيدا يعاني من أسنانه المتعفة. كتب عن خوفه من النوم وحيدا، وما مر به في كتابه "قرب السكاكين"؛ كي لا تشعر بالوحدة والغربة.

**السيرة الذاتية للكاتب  
تقاطعت مع سير كثيرين،  
لتقدم لنا لا كتابا عن  
ذاتها، وإنما كتابة أشبه  
بمدح الوحدة**

إلى جانب ما سبق تشير أيضا إلى العزلة الناتجة عن ألقنا الرأهن حيث شبكات التواصل الاجتماعي تزيد العزلة بين الناس، وتدل ذلك على الدراسة التي أعدتها أستاذة علم الاجتماع الأمريكي المشهورة شيرلي تركل، وقد خلصت إلى أن الطريقة المحيطة للناس في التواصل عبر الإنترنت من خلال شبكات التواصل الاجتماعي "كديجيتال" و"الفيسبوك"، تعد شكلا جديدا من أشكال العزلة الحديثة. وتقوم أطروحة تركل على فكرة بسيطة، وهي أن التكنولوجيا تهدد بأن تهيمن على حياتنا وتجعلنا أقل إنسانية، وأنه وتحت شعار "التواصل بشكل أفضل"، فإن هذه الشبكات تزيد من عزلة الناس، عبر إدمانهم في حياة افتراضية. في الأخير هل فعلا نحن في مغزل عن العزلة، أم إننا دخلنا بإرادتنا إلى هذه الدائرة بفعل عوامل كثيرة ومتراكمة؟ في ظني أننا هكذا!

النوم، وتعجل بالشيخوخة، وتضعف الجهاز المناعي، وتمهد لتدهور القوى العقلية والمعرفية. ومع هذه السلبيات الظاهرة في معنى الوحدة، وتصنيف من يفضلها بأنه مرض، إلا أنه ثمة إيجابية في الوحدة، فهي أشبه بفرصة لمراجعة الذات بعيدا عن الضجيج المحيط، أو بمثابة التمسك بالعلاج للذوب فكما تقر أوليفيا "إن الوحدة أحيانا تشقنا من الجروح، وإن ليست كل الذوب قبيحة"، وهروباً من هذا الإحساس كانت تمشي بين الناس الذين يحملون أجهزة محمولة، كنوع من التحايل على شعورها بالوحدة لـ"إخفاء حقيقة أنني وحيدة هنا ولا أملك رفقة".

هذا الودع لم تكن فعلا مرضياً، كما قرّر علماء النفس والاجتماع من خلال تجاربهم، التي أجروها على الكثير من المصابين بالعزلة. العزلة أشبه بفعل إبداعي فري؛ فالفنان يخلق من الوحدة فنونا مختلفة، فمثلا الفنان هنري دارجر الذي كان يعيش في ماوى بمدينة شيكاغو، في عزلة تامة بعيدا عن أي رفقة أو جمهور، وما إن انتقل إلى الكنيسة في آخر حياته، حتى وجدوا "مئات اللوحات النفيسة المخبأة في غرفته" لوحات لم يسبق عرضها على أي إنسان من قبل. أما الفنان إدوارد هوير كان مشغولاً بتحويل الوحدة - الحضارة إلى ألوان. بقدر ما تمزج أوليفيا لاينغ بين الذاتي والغيري، في مروحة تظهر من خلالها انعكاسات وتأثيرات الوحدة على الإنسان بصفة عامة، أيضا تقدم دراسات علمية عن الوحدة، وتجارب بعض العلماء التي أجروها على مرضاهم على نحو ما فعلت فريدا فرومواشمان، ثم علماء النفس الذي اشتغلوا بالموضوع منذ عام 1975 ولكن بشكل بطيء، على نحو ما فعل عالم الاجتماع روبرت فايس ودراسته عن تجربة العزلة العاطفية والاجتماعية. ففايس يرى مع أن الوحدة توهن الثقة بالنفس إلا أنها تبدو "كانها شيء بإمكانه امتلاك البشر وأنها ملحة وقوية وبشكل غريب، وكانها فتنة للروح". الشيء المثير أن فايس يقول "إن الأطباء النفسيين وعلماء النفس، ليسوا محصنين من هذا الزهايم والكراه الذي يمارسه الجميع على من يمر بتجربة الوحدة".

لا تتوقف أسباب العزلة عن مؤثرات البيئة والنشأة، خاصة ما أظهرته من ظروف قهريّة عاشها الكثير ممن

الضعف لعلاج الجروح والحروق أثناء الحرب، حيث يسطاد الجنود الضعف ويوضع في صندوق زجاجي الأضلاع، وما إن يرى الضعف المرعوب صورته منعكسة على المرايا، حتى يبدأ بإفراز مادة دهنية شبيهة بالزيت، يجمعونها وتعرف باسم العرق الإيجباري، ويستخرجون منها مرهما للعلاج. هكذا فعل سكان مدينة الوحدة (أو الهاربون إلى نواتهم) الذين استحضرتهم أوليفيا لانغ في كتابها، وقد تقاطعت سيرتها مع سير الكثيرين، لتقدم لنا لا كتابا عن ذاتها، أو عن أرقها، وإنما كتابة أشبه بمدح الوحدة، فتتخيل أوليفيا لاينغ أن الشعور بالعزلة، أشبه بمكان مأهول بالسكان، أو مدينة في حد ذاتها، أحيانا تعتقدنا مكانا مثيراً جداً، كما استشرفت من أغنية "ويلسون". قد يبدو هذا ليس اكتشاف أوليفيا وحدها، بل شاطرها هذا الرأي كل سكان هذه المدينة: كإدوارد هوير، وأندي وارهل، وهنري دارجر، وديفيد وونتاروفيتش وجوش هاريس، وزوي ليونارد، وبيلي هوليداي أو حتى فاليري سولاناس التي أرادت اغتيال أندي وارهل.

### العلم والفن

الغريب أن المؤلفة ترى أن الوحدة عكس مرادفها في القواميس؛ فالوحدة لا تقتضي دائماً انعدام الرفقة، ومن ثم فليس جميع الأشخاص الذين يعيشون حياتهم دون رفقة وحيدين، وهو ما يتطابق مع قول إيكيتيوس قبل ألفي سنة "فكون المرء وحده، لا يجعله وحيداً؛ كما أن وجوده بين الجموع، لا يفي عنه بالضرورة صفة الوحدة". وقد قادها هذا إلى البحث عن أسباب الوحدة، التي قد تأتي بسبب غياب أو عدم كفاية القرب، أو لأسباب اجتماعية قهريّة كما عانى الكثير ممن تطرقت لسيرهم داخل الكتاب وهو ما جعل الكتاب في جزء منه بمثابة دراسة علمية، تستقرئ التجارب وتستخلص النتائج، التي أثبتت أن الفرد كلما أصبح أكثر وحدة، كلما أصبح أقل قدرة على التعامل مع الظروف الاجتماعية من حوله أو حتى فهمها. فتنمو الوحدة حوله. وتكشف أيضا آثار الوحدة عند يعانون منها بأنهم لا ينامون جيداً، ويتعرضون لنقص مستمر في ساعات

هل يمكن أن نصف إنسان هذا العصر بأنه وحيد؟ رغم ما تحيط به من إمكانيات ومن حشود بشرية، فالعالم صار أقرب إلينا مما كان عليه بفعل "السمارت فون" والسماوات المفتوحة. لكن مع هذا يشعر الكثير من الناس بأنهم وحيدون. ولكن العيش في الوحدة فن أيضاً وله مقوماته كما ترويها أوليفيا لاينغ.

ممدوح فراج النابلي  
كاتب مصري

ماذا يعني في الأصل أن نكون وحيدين كمواطنين في هذا العصر الرقمي، كيف يمكن لنا العيش إن لم تكن على اقتراب حميم بإنسان آخر؟ هل بإمكان الجنس أن يعالج الوحدة؟ هل تساعدنا التكنولوجيا في أن تقربنا من بعضنا، أم تجعلنا محاصرين أمام الشاشات؟ هل حقاً تخيل أحداً أن تكون الوحدة والهروب من الآخرين، حافزاً لإنتاج آلاف الأعمال الإبداعية التي تبهر العين؟

هذه وغيرها من أسئلة كانت محور كتاب "المدينة الوحيدة: مغامرات في فن البقاء وحيداً" لأوليفيا لاينغ، وقد قام بترجمته إلى العربية محمد الضبع ليصدر مؤخراً في نسخته العربية.

### العرق الإيجباري

الكتاب ينتمي وفقاً لما هو مكتوب على غلافه إلى جنس "السيرة" وهذا توصيف دقيق وحذر في الوقت ذاته. فالسيرة هنا ليست مقتصرة على حياة أوليفيا التي لا تهتم بذكر الكثير عن تفاصيل حياتها، وإنما تقدم مجرد أصداء تمررها بالتقاطع مع نوات آخرين تماشياً مع ذاتها في الشعور بالوحدة. فيفاجأ القارئ بإجزاء من سيرة أوليفيا لاينغ، خاصة بعد انتقالها إلى نيويورك إثر تجربة حب فاشلة.

فتسرد عن هذه الرحلة، ووقع إحساس الوحدة الذي عاشته، وكانها أشبه بإنسان جائع وحوله أناس ياكلون، ثم ولعها براقية البنانيات والأضواء الخارجية من خلف زجاج نافذة، وحالة التوقع داخل نفسها، حتى أنها كانت تشعر بأنها محاصرة داخل نفسها، وأضعة مسافة بعيدة بينها وبين أي شخص بجوارها.

تسعي الكاتبة لتأمل هذه الذات في مرآة الأخر، فعندما تحكي عن طفولة ديفيد وونتاروفيتش القاسية، وكيف تأقلم مع مثليته، كانت تسترجع جزءاً من طفولتها، وشعورها بالخوف، وكيفية التأقلم القسري على عيش حياة مليئة بالخوف والغضب، عن أمها المثلية، وقد أثر هذا عليها بأن جعلها تنتقل من مكان إلى آخر. وشعورها بالوحدة في المدرسة بسبب الطريقة العدائية التي كان ينظر بها الجميع إلى العائلات المثلية. أما ديفيد فكان أكثر رغبة في التحرر من سجن نفسه؛ لذا فقد اعتمد على الفن والجنس.

ومن هنا يأتي التأكيد على أنها سيرة من نوع خاص، فهي تخترق مفهوم السيرة الذاتية، الكاتبة ذهبت لتعاش مع الوحدة، في مدينة ضد الوحدة؛ مدينة تمتلئ بالحشود والضجيج، وهذا ليس مهماً، فالمهم وهذا مصادفة أم عن قصد (هذا لا نعلمه) أن هذه المدينة مع هذه الصفة التي تميزها، كانت ملاذاً لأناس الفوا الوحدة، وانسحبوا من عالم الضجيج، بإرادتهم تارة، أو بفعل ظروف اجتماعية قاهرة -تارة أخرى- جعلتهم يلجأون للوحدة كفعل آمن.

محاولة البحث عن الذات ليس في مرابا الآخرين وإنما في مراتها، أشبه بعرق الضفدع الذي حدثنا عنه المرحح الياباني "أكيرا كوروساوا" في كتابه "ما يشبه السيرة الذاتية: عرق الضفدع" فقد ذكر حكاية مرهم

## المكتبات الحلقة الأضعف في صناعة الكتاب

وإذا كان المشترك بين هذه الفضاءات يكمن في منحها حياة جديدة للكتاب المستعمل، وفي وضعها كتدوين مكتبات البيع أكبر من شارع قد يغلق أو يفتح حسب مزاج السلطة. ولعل حالة المغرب تخزن وضعيتها المكتبات بالعالم العربي.

وفي هذا السياق، تكشف آخر دراسة تهم وضعيتها المكتبات بالمغرب، وهي التي كنت قد أعدتها بطلب من منظمة اليونسكو، عن المستويات المحيطة لاشتغال مكتبات البيع بالبلد، سواء في ما يخص حجم طلباتها من الكتب ومجالاتها المعرفية أو معدلات مبيعاتها. إذ يقارب، على سبيل المثال، معدل المرجوعات نصف نسخ العناوين المعروضة. ومن المرجح أن المعدل أكبر من ذلك بالنسبة إلى الكتاب الثقافي، اعتباراً لكون معطيات الدراسة تشمل أيضاً المبيعات على مستوى الكتاب المدرسي والجامعي والموازي.

من جهة أخرى، تعرف المبيعات على مستوى الأعمال الأدبية تراجعاً، في الوقت الذي تشكل فيه أحيانا هذه الأعمال جانباً أساساً من الكتب المعروضة للبيع. ويعكس هذا التباين خلا على مستوى معرفة حاجيات القراء، وهو ما يفسره غياب أبحاث ميدانية في المجال، حيث إن آخر دراسة قامت بها وزارة الثقافة المغربية، في هذا الإطار، تعود إلى ما قبل العشرين سنة. وهي مدة تكفي لوفاة أجيال وولادة أجيال جديدة من القراء، وعاداتهم وطقوسهم وحاجياتهم المختلفة.

وقد يبدو مفاجئاً أن نجد أن أكثر من ستين في المئة من الكتب التي تشغل رفوف مكتبات البيع هي كتب مستوردة، سواء من الدول العربية، أو الأجنبية. ولعل هذا الأمر يعكس جانباً أكبر، يرتبط بالتباين الكبير بين صادرات البلد ووارداته على مستوى الكتاب. إذ نجد أن قيمة مجموع واردات المغرب، في هذا المجال، قد تضاعف بمعدل قيمة صادراته بعشرين مرة.

وإذا كانت هذه المعطيات تعكس وضعية الكتاب المغربي العاجز عن تجاوز الحدود، فإنها تكشف، في نفس الوقت، عن حقيقة قد تسائل الكثير من القديتات التي يستند إليها الحضور، وبمعنى أدق، إن استمرار هذا الحضور الكبير للمكتبات المستوردة، سواء العربي منه أو الأجنبي، يفترض وجود سوق للقراءة بالمغرب لا ينتبه إليها الخطاب الذي يتحدث، من موقع الانطباع، عن وجود أزمة قراءة بالبلد.

والأكيد أن وضعية مكتبات البيع المحيطة ليست، لحسن الحظ، مشتركة بين جميع الجغرافيات الثقافية. وكيف على الأقل ما تعكسه فضاءات الضفة الأخرى. إذ يكشف آخر تقرير صادر عن المرصد الفرنسي لمكتبات البيع عن تطور أرقام معاملات القطاع بالبلد خلال السنة السابقة، وذلك بعد ركود عابر نتيجة أجواء الانتخابات الرئاسية وأيضاً بحكم احتجاجات حركة السترات الصفراء. بينما تم هذا التطور برغم ولادة غول كبير، اسمه أمازون، وهو الموقع الذي يمكنه أن يأتي على كل وحدات البيع الكبيرة والصغيرة بحكم قوته التنافسية الكبرى، وطبيعة خدماته التي تغطي كل بلدان العالم وتستجيب لجميع حاجيات جميع القراء.

والغالب أن هذا النجاح في مقاومة شرارة الإنترنت يضمن استمرار فضاء يمنح متعة تلمس الكتاب وبشم راحة صفحاته. وإن كان القارئ في جميع الأحوال، هو الرابع في هذه المعركة!

حسن الوزاني  
كاتب مغربي

يبدو مؤلماً أن يستمر إقبال عدد من مكتبات البيع، على الأقل على مستوى العالم العربي، ضداً على الأهمية القصوى التي تلعبها المكتبات على مستوى حلقات صناعة الكتاب. وذلك باعتبارها الوسيط الأساسي بين منتجي الكتاب وناشريه وبين القارئ. ونجد من المحيط أن بلداً كالمغرب، يسكانه الذين يتجاوزون الأربعين مليون نسمة ويعد قرائه الحقيقيين، ومن المفترض أن يكون ضخماً، يتوفر بالكاد على ألف مكتبة، بما فيها وحدات البيع الصغيرة المختصة في الخدمات الورقية وبيع الصحف والمجلات. وذلك بمعدل مكتبة لما يقارب الأربعين ألف مواطن، مع العلم أن ثلث المكتبات تستأسد بها مدينة واحدة، وهي الدار البيضاء، في سياق المركزية الثقافية التي لم يستطع البلد تجاوزها بعد.

ويبدو هذا الوضع مفارقاً على الأقل لتاريخ البلد على مستوى تداول الكتب. إذ يعود تأسيس مكتبات البيع إلى قرون عديدة. وهو ما يعكسه العدد الهام للمكتبات التي كانت تحيط بالمدراس، خصوصاً بفاس وجامعة القرويين بشكل أساس. وقد وصل عدد المكتبيين، خلال مرحلة دولة السعديين، على سبيل المثال، حسب محمد المنوني في كتابه "نور الكتب في ماضي المغرب"، إلى حوالي 200 كتي، ومنهم من استطاع مراكمة ثروة بفضل تجارة المخطوطات، كما هو الأمر بالنسبة إلى اللغوي والشاعر محمد بن محمد بن بيبس العبدري الغرناطي الذي عاش خلال القرن الرابع عشر الميلادي.

## مكتبات بيع الكتب تتقلص في العالم العربي في حين يتزايد حضور الكتب الأجنبية المترجمة في شكل ملحوظ

كما كان عمل الكتيبي يتم بموازاة مع طرق أخرى على مستوى الترويج التجاري، ومنها، على سبيل المثال، البيع بالمزاد، الذي كان يتم من طرف الكتيبيين وهواة الكتب والإساتذة، كما يشير إلى ذلك أحمد شوقي بنين في كتابه "تاريخ المكتبات بالمغرب".

وسيفتح دخول الطباعة الحجرية بالمغرب الباب أمام ظهور عدد من المكتبات المختصة في بيع المطبوعات الحجرية المغربية أو الصادرة بالقاهرة. بينما عرفت مرحلة الحماية ظهور عدد من المكتبات التجارية، التي كان يشتغل بعضها أيضاً في مجال توزيع واستيراد الكتب.

ويبدو هذا التاريخ المشرق مشتركاً على مستوى العديد من الدول العربية، التي عرفت تراكمها هاما على مستوى بيع الكتب. إذ كانت كل العواصم الثقافية تتوفر على أسواقها الخاصة، التي شكلت علامة على حضور تداول الكتاب باعتباره شكلاً من أشكال الحياة اليومية. وهو ما تعكسه على سبيل المثال فضاءات مثل سور الأزبكية بالقاهرة، الذي أقل أكثر من قرن من عمره، وشارع المنشي العريق ببغداد، الذي ما زال يصر على الحياة، ضداً على ما يعرفه البلد، ومن ذلك واقعة تحجير الشارع قبل سنوات. كما تضم اللائحة نهج الدباغين بتونس، وشارع الحلبوني بدمشق وغيرها.



مكتبات تقاوم بصعوبة